مكتبة احمد مجاور الباب الامامي

الطبيعة وأذى الحيوانات. وتمشّياً مع مبدأ سدّ الفراغ، بدأت الجماعات البشرية بالتوغّل في الأرض مراعين إمكانية العيش في ظل الظروف الطبيعية السائدة.

من هنا يمكننا القول أن أول ظهور للحضارات كان في المناطق المعتدلة، كما لفت الى ذلك، وبشكل ثاقب، ابن خلدون، المفكر العربي، منذ ما يقارب الستة قرون[1]. أي في حوض البحر المتوسط وفي أواسط آسيا والأميركتين، قبل اكتشافهما من قبل كولومبس.

ومنذ ذلك الحين، بدأ الاهتمام بالجغرافيا حيث اقتصرت على وصف الأجزاء المعلومة من سطح الأرض، وتفسير وجودها على قدر ما تسمح به معتقداهم الشعبية والأساطير المتوارثة بما تجود به من تخمينات ومبالغات وتخيّلات.

وجاء الاغريق ليقوموا بانجازاتهم في هذا المجال، فقدّموا تفسيرات للكون وللوجود لا تختلف عما قدّمه من سبقوهم في هذا المجال. وفي كل الأحوال كانت الأفكار استجابة لفضول الانسان، فأشبعته بالاجابة على هذه التساؤلات التي تزامنت معه في الوجود.

أما الاهتمامات الجغرافيّة، فقد انقسمت ومنذ القدم، إلى قسمين:

– الجغرافيا المحيطة بالانسان، وهي التي تشكّل عالمه الخاص الذي يتوسّع على قدر توسّع معارف الانسان ومداركه في علاقته مع الطبيعة التي يرى نفسه جزءاً منها.

– والجغرافيا العامة التي شكّلت بالنسبة إليه نوعاً من المعضلة يحاول فك رموزها، وفهم المبهم منها، فيقدّم التفسير، ويحاول إقامة العلاقات معها بما يكفل وجوده، ويجلب له الأمن والحماية والطمأنينة.

١– ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، د.ت. بيروت،ص: ٩١– ٩٢

مكتبة احمد مجاور الباب الامامي

جغرافيا الإنسان، المفهوم والرواد

البدايات:

يهتم علم الجغرافيا بسطح الأرض وبما يحيط بها. يصف السطح بكل ما فيه من تضاريس ومنبسطات، من جبال وأودية وسواحل. يهتم بتقسيماته الطبيعية والسياسية والعلاقة بينهما. يدرس المناخ ويظهر مدى علاقته بتكوين المجتمعات الانسانية، وأهميته في عمليات الانتاج وتكوّن الحضارات. ويدرس هذا العلم اختلاف المناطق الطبيعية، ومن ثم بداية التأثير فيها من أجل مصلحة الانسان وتقدمه مما يعني: نشوء الحضارة الانسانية.

ولم يبدأ العلماء بالنظر إلى الجغرافيا كعلم إلاّ بعد أن مرّت بفترات طويلة جداً تعود إلى بداية نشوء الاجتماع البشري، والى بداية تطلّع الانسان الى المحيط الذي يعيش فيه، مستكشفاً خصائصه، وعاملاً على محاولة الافادة مما تقدّمه الطبيعة من إمكانيات ليس عليه إلاّ الاستجابة لها، والتكيّف معها للحفاظ على وجوده وعلى وجود الجماعة التي ينتمي إليها، وللارتقاء في هذا الوجود.

لذلك لم تظهر المجتمعات البشرية، بدايةً، إلاّ في المناطق المؤهّلة بالطبيعة للعيش، وبما تقدمه من مقوّمات الحياة كالموقع الجغرافي المتّصف بالاعتدال أولاً، والمميّز بوجود الماء، والمكان الذي يسهّل التنقل، ويقدّم التربة التي تسهّل وتيسّر ما يكفي الانسان وما يوفّر عليه ضائقة الجوع والحماية باتّقاء غوائل

مكتبة احمد
مجاور الباب الامامي

أما الجغرافيا البشرية، فقد كانت بعيدة عن مداركه. ولم يحاول أن يدرس العلاقة بينه كإنسان وبين البيئة الطبيعية التي يقيم فيها ويسكن إليها. لأن هذه العلاقة لم ينظر إليها على هذا النوع من النظر إلاّ في العصر الحديث.

والجغرافيا كعلم، حديثة النشأة. ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر على أيدي همبولت وريتر Riter عندما اهتما بدراسة المظاهر البيولوجية لسطح الأرض وعلاقتها بالبيئة الطبيعية. وقد أظهر كل منهما العلاقات المتبادلة بين الظواهر الطبيعية والنشاطات الانسانية[٢]. إلاّ أن الجغرافيا كموضوع من المواضيع الانسانية اعتُبر من أهم اهتمامات الانسان وأقدمها لاتصاله بكثير من العلوم الطبيعية والبشرية الأخرى. وقد اعتبر "سترابون" أن الجغرافيين هم من أوفر الناس حكمة، وهم الذين يعتبرون بحق من الفلاسفة[٣].

ظهرت الجغرافيا الى الوجود كإستجابة لحاجات الانسان، وتطوّرت بتطوّره، وبقيت تستجيب لحاجات الانسان. فازدادت، لذلك، أهمية الجغرافيا بازدياد المعلومات التي توفّرت نتيجة الرحلات البحرية الاستكشافية والتجارية التي قام بها الفينيقيون والمصريون القدماء والاغريق والرومان. ذلك أن هذه المعلومات التي وفّرتها الرحلات استُغلّت من أجل التوغل في الاستكشاف حتى أصبح حوض البحر المتوسط مكشوفاً بكامله للفينيقيين، فوسّعوا بذلك تجارتهم ووصلوا الى شواطىء بريطانيا التي كانت تعتبر، وحتى نهاية القرن الخامس عشر، نهاية العالم، قبل اكتشاف أميركا. علماً بأن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن الفينيقيين وصلوا الى أميركا قبل كولومبوس بوقت طويل.

٢- فؤاد محمد الصقار، دراسات في الجغرافية البشرية، وكالة المطبوعات، الطبعة الثالثة، ١٩٧٥، الكويت، ص: ٦.

٣- المرجع نفسه، ص: ٦.

وقد ساهم العرب بتطوير المعلومات الجغرافية وزيادتها. ذلك أن الكثير من الرحّالة العرب قاموا برحلات استكشافية وصفوا خلالها المناطق التي وصلوا إليها. وقدّموا لنا المعلومات القيّمة عما شاهدوه ولاحظوه من مناطق غير معروفة في ذلك الحين. فقدّم لنا ابن جبير وابن بطوطة وابن ماجد الكثير من المعلومات عن آسيا، وكذلك عن أوروبا حتى مناطقها الشمالية. وكتب الجغرافيون العرب كتابات جغرافية تميزت بالامانة العلمية، وإن كانوا قد تأثروا بالاغريق في بعض آرائهم الفلكية. من هؤلاء، اليعقوبي في كتاب "معجم البلدان"، والمسعودي في كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، والمقدسي في كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة أحوال الأقاليم"، وغيرهم. وساعد العرب على كشف سواحل أفريقيا الغربية، كما ساعدوا على كشف المناطق الداخلية من أفريقيا حتى خط الاستواء، وسواحل أفريقيا الشرقية حتى مالاعاشي (مدغشقر)[٤].

وساهم الأوروبيون أيضاً في تراكم المعلومات الجغرافية عن طريق الاكتشافات البحرية التي نشطت انطلاقاً من سواحل أوروبا على يد "ماركو بولو" "Marco Polo" الذي قدّم الكثير من المعلومات الجغرافية عن سواحل آسيا. ولم تلبث الاكتشافات الحديثة أن بدأت تعطي ثمارها كنتيجة للمنافسة بين الممالك الاوروبية، وكنتيجة لنضوج الظروف الاقليمية والدولية في الدخول في العصور الحديثة. فكان اكتشاف أميركا على يد كريستوف كولومبوس في نهاية القرن الخامس عشر برعاية اسبانيا، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح برعاية البرتغال، واكتشاف المناطق الداخلية في قارتي أميركا وآسيا وأجزاء من أوستراليا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وفي أواخر القرن التاسع عشر توغّل المكتشفون في داخل القارة الأفريقية وفي المناطق التي لم تكتشف من داخل أميركا الشمالية والجنوبية والمناطق القطبية، باستثناء القارة الجنوبية أنتاركتكا

٤- المرجع نفسه، ص: ٧.

مكتبة احمد
مجاور الباب الامامي

Antaractica التي لم يتوغل المكتشفون في قلبها إلاّ في سنة ١٩٥٨. وصحب هذه الاكتشافات معرفة الكثير عن هذه الأقاليم وعن سكانها "البدائيين"، مما زاد من اهتمامات المتخصّصين بالدراسات الجغرافية. وبالتالي إظهار التأثيرات المتبادلة بين الانسان والبيئة[٥].

ولم يظهر الاهتمام بالجغرافيا كعلم له مبادئه وقوانينه إلاّ في نهاية القرن التاسع عشر في ألمانيا. إلاّ أن هذه الاهتمامات ظهرت أولاً في بريطانيا كوسيلة لزيادة الاكتشافات الجغرافية، ولتدعيم مركز بريطانيا الاستعماري في العالم. وذلك من خلال كتابات "ليل" الذي يعتبر رائداً في البحث في الجغرافيا الطبيعية. "وداروين" من خلال كتابه عن "أصل الانواع" الذي ظهر في سنة ١٨٥٠، وقد طوّر فيه الدراسات الجغرافية التي استفادت من مبدأ جغرافي هام أساسه تلاؤم النبات والحيوان والانسان تلاؤماً تاماً مع البيئة الطبيعية[٦].

الجغرافيا كعلم

مما لا شك فيه أن الجغرافيا كعلم لم تظهر إلاّ بعد أن تطورت المعارف الجغرافيّة في بداياتها المرتبطة بشكل وثيق بالاكتشافات الجغرافية. وإذا كانت المعارف الجغرافية في بداياتها تهتم بشكل مباشر بمصلحة الانسان الحياتية والتجارية، فإن هذه المعارف لم تتجاوز تحديد مواقع المدن الكبرى، وأهمية كل منها من ناحية إكتظاظها بالسكان ودرجة استيعابها للسلع التجارية، وموقعها كصلة وصل بين بلدان أقل كثافة، وقربها أو بُعدها من أو عن طرق القوافل، وأهميتها كنقاط استراتيجية في أعمال الحرب والفتوحات. إلاّ أن هذه المعارف تطوّرت مع تطور الحضارة الانسانية، وتوصلت الى البحث في العلاقة بين

٥- المرجع نفسه، ص:٨.

٦- المرجع نفسه، ص: ٨.

الانسان وبين البيئة الطبيعية التي يتفاعل معها، والتي تتحول بهذا التفاعل من بيئة طبيعية إلى بيئة اجتماعية.

لذلك فقد اتفق الجغرافيون على تحديد علم الجغرافيا بأنه العلم الذي يدرس العلاقة المتبادلة بين الانسان والبيئة الطبيعية التي يوجد فيها، ويدرس درجة تأثير البيئة في الانسان، ودرجة تأثير الانسان في البيئة. والانسان المقصود هنا لا يعني الفرد إلاّ كمجرّد إمكانية انسانية اجتماعية لا تظهر إلى الفعل إلاّ من خلال علاقاته مع الآخرين وفي هذه البيئة[٧].

وعلم الجغرافيا يرتبط بالكثير من العلوم الأخرى، ويحاول أن يتّكىء عليها من أجل التوصل إلى توضيح مقاصده وغاياته. فهو يتطلب الإلمام التام بالعلوم الطبيعية. ومن أجل درس تلاؤم الانسان مع بيئته الطبيعية، لا بدّ من معرفة الكثير من العلوم الانسانية التي تظهر مدى اهتمام الانسان بالمكان الذي يتفاعل معه، ودرجة تعلّقه به، وما ينتج عن هذه العلاقة من تراث ومن أفكار، ومن بنى ذهنية يمكن من خلالها إضاءة جوانب هامة لها علاقة بالجغرافيا، هذا على مستوى العلاقات البشرية - البيئية، أو ما اتفق على تسميته بالجغرافيا البشرية. أما على مستوى الجغرافيا الطبيعية، فهي تحاول أن تتصل بالمعارف الجيولوجيّة، وبعلم الفلك. وتستفيد من علم التشريح في دراسة الصفات الطبيعية للسلالات البشرية وتنقّلها واختلاطها. كما لها علاقة وثيقة بالعلوم السياسية والاقتصادية وعلم الاجتماع والتاريخ من أجل توضيح أفكارها، وما ترتبط به مع هذه العلوم جميعاً. والعلاقة هذه ليست آحادية الجانب، بل تفيد الجغرافيا أيضاً العلوم المذكورة آنفاً فتمدّها بما يزيد من توضيح أفكارها أيضاً من ناحية توزيع السكان والاختلافات المكانية وتأثيرها على الأنظمة السياسية، وعلى عمليات الانتاج، وتوزيع الثروة،

٧- أنطون سعاده، الآثار الكاملة، الجزء الخامس، نشوء الامم، (١٩٣٨)، منشورات عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي،١٩٧٨، بيروت، ص: ٥١.

مكتبة احمد مجاور الباب الامامي

ودرجات التفاعل الاجتماعي للمجتمعات البشرية، وتحديد الوظائف الاجتماعية، وغيرها من المسائل المشتركة بين الجغرافيا والعلوم الاجتماعية والطبيعية الأخرى.

والجغرافيا كعلم تقسم إلى قسمين رئيسيين: الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية.

١ – الجغرافيا الطبيعية وهي تنقسم بدورها إلى الأقسام التالية:

أ- الجغرافيا الفلكية التي تهتم بالموقع الطبيعي على الكرة الأرضية وكل ما له علاقة بالمناخ وعمليات الرصد الجوي وغيرها.

ب- جغرافيا المكان التي تبحث في المنبسطات الأرضية، والشكل الذي يتميز به المكان من ناحية التضاريس والمنخفضات والسهول، والقرب والبعد عن المحيطات والبحار والانهار الكبرى، إلخ...

ج- الجغرافيا الحياتية، وهي تهتم بكل ما له علاقة بحياة الانسان والحيوان والنبات ودرجات الملاءمة بينها، وما ينتج عن ذلك.

٢ – الجغرافيا البشرية، وهي تنقسم بدورها إلى أقسام متعددة، منها:

أ- الجغرافيا الاقتصادية، وهي تهتم بالانتاج والاستهلاك وفي مقوّمات الاقتصاد بشكل عام.

ب- الجغرافيا الاجتماعية، وهي تبحث في العلاقات الاجتماعية المتأتية من العيش في المكان، ودرجات التأثر والتأثير في البيئة الطبيعية.

ج- الجغرافيا السياسية، وهي تهتم بالعلاقة بين الممارسات السياسية وعلاقتها بالمكان وتأثر الانظمة السياسية بالمعطيات الطبيعية وتأثيرها فيها.

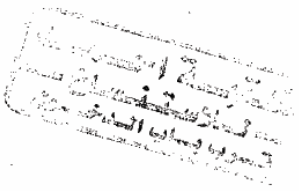

د- جغرافيا السكان، تهتم بتوزيع السكان في المكان ودرجات الكثافة والحركان السكانية ودرجات الخصوبة والعوامل المؤثّرة فيها.

هـ- جغرافيا السلالات البشرية، تبحث في العناصر البشرية، ومسألة الأعراق واختلاطها وارتباط ذلك بالتوجّهات السياسية والعنصرية.

إلاّ أن هذين العلمين تداخلا بشكل وثيق وأصبحا يشكّلان علماً واحداً يهتم بالمكان تحديداً. فيتم درسه من النواحي الطبيعية، ومن الناحية البشرية، وارتباط الناحيتين تأثراً وتأثيراً، وهو ما يسمى بالجغرافيا الاقليمية، التي تهتم بدراساتها بكافة المسائل التي تنتمي إلى الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية. وهي تحاول أن تمدّ اهتمامها إلى الماضي لمعرفة ما يمكن أن يؤدي إلى تطور البيئة الاجتماعية في الزمان، وهي ما يسمى بالجغرافيا التاريخية، بالاضافة إلى توسّلها كافة الوسائل المستمَدّة من العلوم (إحصاءات، بيانات، خرائط، رسوم بيانية) من أجل توضيح أساليبها ومقاصدها في إظهار الصورة الجغرافيّة على أفضل ما يمكن.

علم الجغرافيا البشرية

لا شك أن الجغرافيا البشرية تشكّل القسم الأهم من علم الجغرافيا. ليس لأنها فقط تهتم بالانسان على سطح الأرض، بل لأنها تشمل الجغرافيا الطبيعية والانسانية من خلال علاقتهما فيما بينهما. إلاّ أن هذه الأهمية لم تظهر إلاّ منذ فترة قريبة نسبياً لا تتعدى أواسط القرن التاسع عشر، علماً بأن الجغرافيا البشرية كحقل ممارسة ونظر إشباعاً لمجالات أخرى، كانت محط اهتمامات الانسان منذ وجوده. وقد ظهر الاهتمام بها أكثر عندما اصبحت مادة هامة ومعلومات مفيدة تتضمنها تقارير الرحالة والمكتشفين وأفكاراً توجّه المستعمرين إلى المناطق الأكثر خصباً، والأوفر جهداً في الاستغلال والامتلاك.

ومن المهم التأكيد، أن الجغرافيا البشرية لم تتطور كأي علم من العلوم يبدأ بالملاحظة والاستقراء والاستنتاج ليصل إلى المبادىء العامة والقوانين التي تحكم تطوره وتبلوره؛ فهذا ما تتميز به العلوم البحتة، بل تطورت؛ بالاضافة إلى بعض ما توسّلته من مناهج هذه العلوم، وخصوصاً المشاهدة والملاحظة وما ينتج عنهما، من أجل هذا التطور؛ كإستجابة للتوسع الاستعماري في العالم الذي يمثّل الخارج بالنسبة لأوروبا. وكافة النظريات التي رافقت تطور هذا العلم انطلقت من أهمية تكيّف الانسان مع بيئته الطبيعية، أولاً، ومع المؤثّرات الخارجية، ومنها الخضوع للمستعمر الأكثر تحضّراً والأكثر تجربة وخبرة، التي يمكن أن تؤثّر على توجهه وعلى نظرته إلى الحياة.

إذا كان همبولت Humbldt (١٧٦٩ - ١٨٥٩)، يعتبر مؤسس علم الجغرافيا البشرية الحديثة من خلال دراسته الرائدة للمجتمعات البشرية كجغرافي قام برحلات إلى أميركا الجنوبية والوسطى، وإلى سيبريا، وقدم خلالها وصفاً دقيقاً لمشاهداته، مدعّماً هذا الوصف باظهار العلاقة الوثيقة بين الحياة البشرية والبيئة الطبيعية، ولكن من خلال التأثير آحادي الجانب من البيئة في الانسان، والخضوع الكلي من قبل الانسان للبيئة الطبيعية. ويثبّت هذا التأثير من خلال إظهار الأثر الذي تتركه البيئة الطبيعية في أشكالهم وطباعهم وأخلاقهم وأنماط حياتهم الاجتماعية والاقتصادية[٨]. علماً بأن ابن خلدون قد سبق همبولت بتأكيد هذه الحتمية بنحو خمسة قرون، وإن كان توسّل العوامل المؤثّرة في الاجتماع البشري، وهي مسائل من صميم الجغرافيا البشرية، من أجل تأكيد نظرياته الرائدة في علم العمران. وهذا ما سنفصّل القول فيه في الفصل التالي.

بقيت نظرية همبولت الحتمية تعطي ثمارها إلى أن جاء الجغرافي الألماني راتزل Ratzel (١٨٤٤- ١٩٠٤) الذي بدأ حياته كعالم طبيعيات وصحافي

٨- الصقار، دراسات في الجغرافية البشرية، مذكور سابقاً، ص: ١٢.